محمد سعيد رمضان البوطي

دفاع عن الإسلام والتاريخ

وهو ردٌّ على بعض ما جاء في كتاب (التاريخ العباسي)

للأستاذ شاكر مصطفى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فقد أطلعني أحد الإخوان على كتاب (التاريخ العباسي) للأستاذ شاكر مصطفى — وهو كتاب لم أسمع عنه إلاّ منذ حين — وأظهر ريبة في بعض بحوثه ، وطلب إليّ أن أتصفحه وأبدي رأيي فيه .

وقرأت الكتاب ، فإذا به يحمل بين غلافيه مغالطات بيّنة في كثير من حقائق تاريخنا العربي الاسلامي ، وتهجماً جريئاً بأسلوب لبق على صفوة من القادة المسلمين الذين لم أجد الى الآن مسلماً يجرؤ أن يخدش شيئاً من جانبهم ،

أو يتلمس مطعناً في حياتهم، لا خوفاً من السنة والنقاد، ولكن يقيناً بأن تاريخهم الناصع الطهور أسمى من أن يعلق عليه ريب أو يتماسك فوقه نقد. عدا أن المؤلف يخلط في كثير من حقائق الاسلام، ويجانب الصواب فيما حمل نفسه عليه من تحليل وشرح للمذاهب المتفرعة فيما يتعلق بشؤون العقيدة الاسلامية.

ونظرت، فإذا بالكتاب قد تسلل الى الأيدي منذ ما يقارب سنتين. وأمعنت، فإذا ببحوثه تلقى على طلابنا العرب المسلمين من قبل ذلك! ولم آسف لمغالطات هذا الكتاب وما فيه من دس أسفي لمرور كل هذه الحقبة الطويلة عليه دون أن ينتبه أحد من المسلمين في هذا البلد الى تلك المغالطات فضلاً عن أن يكشف عنها ويفضح ما تنطوي عليه من تمويه الكثير من الحقائق ومواربة صريحة فيها.

والكتاب – بعد الاعراض عما فيه من لحون وأخطاء لغوية – قاموس استشراقي كل عمله هو تخليد آراء المستشرقين في تاريخنا وقادتنا وديننا في غاية من التقديس والاحترام والقبول. ولقد كنت أقرأ بحوث هذا الاستاذ البارحة في هدأة الليل، فلا والله لم أكن أستطيع أن أتخيله وهو يضع

الخطوة من بحثه إثر ما يقرره المستشرقون تماماً ، لا ينحاز بها ذات اليمين ولا ذات الشمال ـ إلاّ كرجل عدا عليه لصٌ فداهم بيته فتمكن فيه ؛ فجاء هذا وقد عصّب عينيه وما هو بأعمى ، وأصمّ أذنيه وما به من صمم ، فألقى إليه يمينه يتزلّف إليه أن يرشده الى مرافق داره وزواياها وأمكنة الثروة فيها ..!
وحسبك من كاتب عربي مسلم أنه يرجع الى (كريمر) ليقف من هناك على نص لابن حزم أو الطبري أو الشهرستاني ، ولا يشعره ضميره بوجوب العود الى المكتبة العربية نفسها التي هي ملك يده وإرثه من أجداده ، ليقف هناك على ما يريده متثبّتا من صحته ، آمنـــاً من تحريف النقل والترجمة !! وليت شعري هل يتنزل أصغر طالب أوربي أن يتبنّى نقـــلاً عن (كريمر) مثلاً عن طريق الرجوع الى كتاب شاكر مصطفى أو أي شخص أجنبيّ آخر ، وتطمئن بذلك نفسه ، فلا يشعر بما يدعوه لمراجعة كتاب كريمر نفسه تثبتاً واعتزازاً ؟!
وبعد ، فمعظم فصول هذا الكتاب إن لم تجد فيه خدشاً لقدسية الدين ، فلا بدّ أن تبصر فيه تمويهاً لبعض حقائق التاريخ . والفصل الذي لا تقف فيه على شيء منها ، لا بدّ أن يقف بك على

حط من كرامة العرب أو طعن في سيرة بعض القادة المسلمين .. وحسبنا أن نكتفي (الآن) بسرد جملة من هـــذه المغالطات والكشف عن غطائها وفضح أساليب الدس والافتراء فيها ، كي يحمل ذلك كل مسلم صادق في اسلامه أو عربي معتز بعروبته على الاستنكار ، ولكي ينتبه إخواننا طلاب الجامعة الى أن مغالطات خطيرة تلقى على مسامعهم باسم الحقيقة والتاريخ ... فعسى أن يقيموا من وعيهم المتثبت الدقيق حاجزاً حصيناً يبعد من حولهم كل تلاعب بتراث تاريخنا الذي لانملك أثمن منه اليوم .

العرب والموالي

●

يتكلم المؤلف في صدر الكتاب عن حالة العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي ويتطرق بذلك الى البحث في الحالة الاجتماعية إذ ذاك والحديث عما أسماه : (العرب والموالي) وهو يفهم من كلمة (الموالي) أنها تعني سائر الامم والفئات الاعجمية التي تغلب عليها العرب أثناء فتوحاتهم الاسلامية سواء كانوا أحراراً أم عتقاء أم عبيداً . وهو يقرر أن الفتح الاسلامي سرعان ما تبدّى واستحال الى فتح سياسي انشق بسببه المجتمع الاسلامي الى طبقتين : [السادة العرب ومنهم صاحب الرسالة، وأصحابه والعائلة المالكة والقواد والولاة ، وبعض كبار المالكين وشخصيات الدولة وجانب من الرعية ؛ ثم طبقة الموالي

وهم ذلك الخليط من الشعوب المغلوبة من روم وفرس و.. الخ ومن كلمة الموالي وهي أوسع التسميات انتشاراً معنى العبيد ايضاً ، ولعل لهذه الملاحظة دلالتها.. (كذا !) .]ص ٨ . كما يقرر أن هؤلاء الموالي ـ على حدّ ما يعنيه ـ كانوا على جانب كبير من الحقارة والامتهان في نظر السادة العرب : [.. إن العربي خلق ليسود ، وخلق غيره لكسح الطرق وخرز الخفاف وحوك الثياب .] ص ٧ وإن الموالي [إذا استخدموا في الاعمال الكتابية والجباية فإنهم أبعدوا عن الوظائف النبيلة..] ص ٨ [هذا الى أن المولى محتقر في المجتمع فلا يخاطبه العربي بالكنية . وكانوا يقولون : لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاث : حمار أو كلب أو مولى ... كما بحث الناس موضوعاً غريباً هو هل يستطيع الصالحون من غير العرب الزواج من العربيات في الجنة !] ص ٩ . وهي اتجاهات نقل المؤلف معظمها من امثال غولد زيهر اليهودي الاصل .. وكريمر المعروف في عدائه السافر للمسلمين ودينهم . وهم يحاولون بذلك أن يثبتوا في الاذهان أن الفتح الاسلامي لم يكن من العدالة الى الدرجة التي أشاع عنها المسلمون ، وأن العرب سرعان ما أسكرتهم

نشوة الظفر بعد كل ما اعتادوه من شتات وذل ؛ فعمدوا الى استعمار الدول التي فتحوها ، واستعبـــــاد الامم التي تغلبوا عليها !

ونحن نبدأ فنسأل الاستاذ المؤلف : من أين له أن (الموالي) تطلق على المغلوبين من غير العرب عامة أو على « الرعايا من غير العرب » على حد تعبيره الذي ذكره في تعليقه عند هـذا الكلام !

إن كل ماتدور حوله هـــذه الكلمة مما يتعلق بما نحن في صـــدده لا يتجاوز طائفتين من المعاني فأما أولاهما فهي : الناصر ، والحليف ، وكل من اسلم على يدك . وأنت ترى أنه ليس واحد من هذه المعاني الثلاثة يختص بالرعايا غـير العرب . ولقد اعتبر العرب عبد الله بن إسحق مولى للحضرميين والحضرميين أنفسهم موالٍ لبنى عبد شمس بن عبد مناف حتى قال الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكنّ عبدالله مولى مواليا[1]

وأما الطائفة الثانية مما تطلق عليه (مولى) من المعاني ،

---

(١) يقصد ان عبد الله مولى للحضرميين والحضرميون موال لبني عبد شمس .

فهي كل ما يتعلق بمعنى الرق من السيد المسترق والعبد الرقيق والسيد المعتق والعبد العتيق [1] .

أما إطلاق هذه الكلمة على الاعاجم وتمييزهم بها عن العرب فتحقيق ذلك يحوجنا الى أن نفهم ما يلي :

أولاً : هذا الاطلاق يرجع الى أحـد معاني الكلمة القديمة وهو : كل من أسلم على يدك أو كل من اتبع قوماً واصبح حليفاً لهم ، ولذلك فإنه لايطلق على الاعجمي غير المسلم أو غير المحالف لقوم مولى .

ثانياً : شـاع هذا الاطلاق أخيراً ، ويبدو أنه إنمـا اشتهر عن طريق ثلة من متقدمي المستشرقين ، أما المتقـــدمون من المؤرخين والباحثين المسلمين فلم يقصد أحـد منهم بالمولى أثناء بحثـه إلا من كان رقيقاً أو كان من آبائه من استُرق أو من ارتبط بحلف مع بعض القبائل دون نظر الى عنصرية أو لغة .. ومن ثم فهي تسمية لا شأن لها بالعجمة بل كل من تبع شخصاً أو اسلم على يديه يعتبر مولى له ، كما مرّ الدليل على ذلك في كلام الفرزدق . وغـــاية هؤلاء المستشرقين من تحوير معنى

---

(١) راجع لسان العرب وشرح القاموس وتهذيب الاسماء واللغات .

هذه الكلمة وتخصيصها بالاعاجم هي تقسيم الوحدة الاسلامية الى طائفتين : عرب يحتكرون لأنفسهم السيادة ، واعاجم يعتبرون في نظر العرب كالعبيد . وتستطيع أن تفهم هذا واضحاً من العنوان الذي أطلقه (فان فلوتن) على كتابه وهو : (السيادة العربية) ![1]

ومما يؤسف له أن يصم المؤلف أذنيه عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وأن يجعل المراد منها عامة المغلوبين من غير العرب ، كي يدمغ بالنصوص التي ساقها لنا مما يستدل بها على كراهية العرب للموالى كافة ذلك الخليط من فرس وروم وترك و .. الخ وذلك على حساب العرب أنفسهم . مع أن الحقيقة تبرأ الى الله مما يزعم ويقرر .

ونحن نستطيع أن نحسن الظن بالمؤلف فنقول : إن هذا الالتواء في تفسير الكلمة إنما هو من خبث المستشرقين الذين

---

(١) لايحتاج قارىء هذا الكتاب الى غير العقل وشيء من الوعي ليدرك مبلغ حقد المؤلف وتحامله على العرب والمسلمين . ويقيننا أنه ما ألف كتابه هذا الا أملاً في فتنة يثيرها في صفوف المسلمين وطمعاً في صراع يوجده بين العرب والاعاجم ممن جمعتهم الاخوة الاسلامية ليمزق وحدتهم ويشيع الفرقة فيما بينهم .

نقل عنهم ، بل ونحن على يقين من ذلك ؛ ولكننا على كل حال لا نجد بداً من أن نقول له : أي دين هذا الذي جعلك تتعبد بآراء المستشرقين ؟ ، أم أي بشر هـذا الذي قال لك إنك لا تملك عقلاً ينقد ويفكر حيال عقولهم وأفكارهم ؟ ؛ أم أليس لـكم عقل يثور ويتحرر ويرتع إلا فوق قوانين مبادئنا واسلامنا . .؟!

* * *

ثم إننا قد أسقطنا - بهذه المقدمة التي أتينا عليها - نصف ما يدعيه الاستاذ المؤلف . وكل الفاظ « المولى » و «الموالي» التي ساقها في النصوص المنقولة عن العرب مما يستدل به على مدعاه، لا يعني سوى الارقاء والمعتقين وليس لذلك كله أي علاقة بالأمم الأعجمية من حيث انهم اعاجم

ونحن نقول بعد ذلك : إننا لا ننكر أن كثيراً من الخلفاء الأمويين كانوا يتبعون في سياستهم تفضيل العنصر العربي على غيره ، ولكننا ننكر أن يكون جميع العرب من المسلمين ساروا في تاريخ ما من العصور على اعتبار أنهم سادة لهم السطوة والجاه ، وللمغلوبين من غيرهم الذل والصغار ، ودعوى ذلك

امر يحتاج الى أدلة وإثباتات علميـــة لا حكايات أقوال عن مجهولين دون سندأ وتحقيق .

والذي يريد أن يدرس تاريخ العرب من هذه الوجهة في إمعان وصدق ، لن يفوته القانون الذي شرعه لهم الاسـلام حيال الموالي والعبيد من أول يوم في تاريخه . ولن يجهل أن عامـــة العرب المسلمين سارت على نهجه وتمسكت به أحسن مايكون التمسك . فأما القانون ، فهو ما قاله الرسول ﷺ للعرب : [إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قِنْيَةً تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه طعامه وليلبسه من لباسه . .] . وأما السير على نهجه فقد كان سائداً في كل العصور والأزمنة ، من عصر الخلفاء الراشدين الى أن انقرض شيء اسمه الموالي . وكلمة (سائداً) لا أظنها تحتاج الى تفسير ، وإنما يحكم التاريخ بميزان ذلك لا بتلقف المصادفات الشاذة أو النادرة أو العابرة في لمحة من زمن . .

والمؤرخ الذي يبغي من وراء عمله خدمة الحقيقة والكشف عنها لن يجهل أن عمر بن الخطاب لقي نافعاً ، وقد قدم للحج ، وكان قد استعمله على مكة ؛ فقال : من استعملت على أهل

الوادي ؟ فقال : عبدَ الرحمن ابن أبزى ، مولى من موالينـا . فسأله عن حاله ، فقال : إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفقـه والفرائض . فسرّ عمر ، وقال : أما إن نبيكم قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع آخرين ، ولن يجهل أن عطاء ابن أبي رباح ـ وهو مولى بني فهر ـ تولىّ إفتاء مكة ؛ وكان ينادي منادي الخليفة الأموي في موسم الحج : لا يفتى الناس الا عطاء بن أبي رباح. وكان على دمامته وسوادشكله يتبوّأ أرفع مركز شعبي بين العرب ، ولعل الخليفة الاموي كان يتمنى لو حصل هو على مثل ذلك . ولن يجهل أن طاووس بن كيسان ـ وهو فارسي ـ كان لا يبالي أن يوبخ الخلفاء ويستعلي عليهم ، وكانوا يتسببون الى رضاه وتمتلىء قلوبهم هيبة له واجلالاً ، وسارت جنازته حينما مات فوق رؤوس عربية مطأطئة خاشعة تتجاوز العد والحصر . ولن يجهل أن نافعاً مولى ابن عمر كان إماماً في عصره انتهت اليه الصدارة في علوم الحديث والتشريع ، وكان يحفّ به التعظيم والتبجيل أينما حل . ولن يجهل أن أبا رويم نافع بن عبد الرحمن ـ وهو مولى أيضاً ـ كان إماماً ذا شأن عظيم في حينـه وكان رجال الدولة كلهم يقدرون شأنه

ويتسابقون الى رضاه . ولن يجهل أن واصل بن عطاء المعتزلي مولى بني ضبّه كان زعيماً في الادب واللغة والعلوم ، لم ينازعه الزعامة فيها أي منازع ، ولم ينكر فضله وسموّه أي إنسان . ولن يجهل أن عبد الله بن سليمان مولى بني مازن ، كان كما قال المبرد من جلّة الرجال ، نازع عمرو بن هداب المازني - وهو في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة - فظهر عليه المولى ، حتى أذن له في هدم داره ، فأدخل العمال دار عمرو ، فلما قلع من سطحه سافاً كفّ عنه ، ثم قال يا عمرو : قد أريتك القدرة وسأريك العفو . ولن يجهل أن أبا عبـــد الله مكحول الشامي - وهو مولى لامرأة من هذيل - كان مفتي الشام وكان الأمراء يغشون مجلسه ويأخذون من علمه . ولن يجهل أن كثيراً غير هؤلاء من الموالي كانوا يتمتعون بين العرب بالجاه والرفعــــة والسلطان . ولم يقل واحد من العرب عن أحد منهم مستنكراً ما لهم من مكانة وفضل : إن الموالي إنما خلقوا لغرز الخفاف كسح الطرق ؛ فما بالهم ينازعوننا زعامة الأدب والاجتماع العلوم ؟.

ومن المؤسف أن ينساق المؤلف وراء المستشرقين فيقرّر

ما ادعوه من أن السر في كون الموالي برعوا في العلوم والآداب والتشريع حتى كان منهم جل القضاة والأئمة ، هو محاولة تعديل نقصهم الاجتماعي . وهذا الهراء خبث تبشيري يقصد منه الروغان عن حجج التاريخ المكذبة لهم والملزمة اياهم كما ذكرنا الآن . غير أن العربي اللبيب لا يصعب عليه أن يدرك من تراجم سائر من ذكرناهم وأمثالهم أن الموالي الذين برعوا في العلوم ، إنما حملهم على ذلك دينهم الذي دخلوا فيه بصدق واخلاص . وها هو ذا أبو حنيفة النعمان ـ وهو من الموالي على حدفهم الاستاذ شاكر ـ لماذا لم يتهافت على مركز القضاء والوظائف النبيلة في الدولة ، ما دام أن الذي دفعه الى الرقي في العلوم والمعارف هو ضمان مكانته الاجتماعية ، مع أن المنصور عرض عليه وظيفة القضاء وألزمه بها إلزاماً ، وهدده إن لم يقبلها بالضرب والجلد ، ولكنه عزف واستعلى وتمنع . ولماذا لم يقبل طاووس القضاء سوى أيام .. ثم استعلى عنه مستغنياً ومتعففا ؟

ثم إننا كنا نريد من الاستاذ المؤلف أن يكون ثبتاً دقيقاً وأن يحترم الاسلوب العلمي في البحث ، فيذكر لنا بدقة من

هم الذين كانوا يقولون : لا يقطع الصلاة الا ثلاث : حمار أو كلب أو مولى . ومن هم الذين عممهم وسمّاهم : (ناساً) حينما قال : [كما بحث الناس موضوعاً غريباً هو : هل يستطيع الصالحون من غير العرب الزواج من العربيات في الجنة ?] .

وإننا نقول : إما أن الاستاذ شاكر لم يقف على اسماء الذين قالوا مثل هذا الكلام عن الموالي ، وإنما تبنّاه سماعاً عن الافواه أو نقلاً عن كتب الاجانب والمستشرقين . وحسبنا حينئذ أن نقول له : إن الامانة العلمية والعربية تنافي هذا كل المنافاة . وإما أن الاستاذ وقف على مصدر مثل هذا الكلام ، فلماذا موّه وعمم إذاً ولم يربط الكلمة بصاحبها أو النص بمرجعه ?

إنني اتحدى شاكر مصطفى وجميع الممخرقين المستشرقين أن يسندوا مثل هذه الأقاويل الى غير بعض الجفاة من اعراب البادية (على أنهم لا يقصدون بالموالي في مثل ذلك الا الرقيق المستملك) وكل ما في الحقيقة من هذه التهمة التي لطخوا بها اسم العرب عامة هي أنّ بعض جفاة الاعراب - كما نص المبرد في الكامل - كانوا لا يكرمون الموالي ، ويتكلمون في حقهم .

أما (الناس !) الذين بحثوا موضوع زواج غير العرب من العربيات في الجنة ، فإنما هم اعرابي واحد من البادية سمعه الأصمعي يقول لآخر : أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة؟ فقال : أرى ذلك والله بالاعمال الصالحة . على أن المبرد نقل هذه القصة مضعفاً ثبوتها وأوردها بصيغة الزعم [1]. فانظروا أيها الناس ما يصنع هذا الرجل من التضليل والتمويه في النقل ، حتى إذا رأى القارؤون كلامه ظنوا أن (الناس) الذين بحثوا في ذلك هم جمهرة .. وانهم الفقهاء والأئمة الذين يسمع منهم فقط في العادة الخوض في مثل هذه البحوث . وإذا فهي مشكلة من صميم الاسلام ووحيه ..!!

بأي عقل يجوز يا أستاذ شاكر أن تجعل كلمة من أعرابي في بادية ، أو طبيعة في صدور بعض الأجلاف منهم ، أو سياسة فضلها بعض خلفاء بني أمية ـ حكماً عاماً شاملاً يسري على تاريخ من الشعب العربي بشتى طبقاته وأفراده ، لاحيال الارقاء فحسب ، بل حيال كل من ثكلته أمه فلم يكن عربياً..؟ ولنفرض أن مؤرخاً جاء بعد قرن من الزمن يريد أن يسجل

---

(١) راجع الكامل للمبرد ج ٢ فصل : الموالي عند العرب .

تاريخ الشرق الاوسط في القرن العشرين . فهل يجوز له أن يدوّن عنه ويقول (... ومما ثبت من اتجاه العرب والمسلمين إذ ذاك أنهم كانوا لايرون مذمة أو نقصاً في تسخير أنفسهم لخدمة الغرب والارتباط باحلاف استعمارية لصالحه) لمجرد أنه عثر على حكومتين في تلك المنطقة جثمتا فوق صدر شعوبهما واصطنعتا لنفسهما مظهر العروبة أو الاسلام ، ثم فضلتا أن تنقادا لخدمة المستعمر واحلافه ؟! ولنفرض إن حماراً من المستشرقين قام ينهق بهذه الفرية ، فهل يكون من لوازم ذلك أن يقوم بعض العرب المسلمون الأعزّة فيرددوا ما يقول ؟

المرجئة وعقيدتهم

●

ثم يتحدث المؤلف عن الاتجاهات الدينية في العهد الأموي، ويتطرق إلى البحث عن (المرجئة) ومذهبهم . وهو هنا يسلّم مقادته تسليماً تاماً لباحثين أجنبيين لا يجهل أحد ممن سمع باسمهما وقرأ شيئاً من ابحاثهما مبلغ تحاملهما على الاسلام وتفانيهما في تمويه الحقائق بغية الكيد له . وأغلب الظن أنهما من أجل ذلك عنيا بدراسة التاريخ الاسلامي ، إذ كانت بحوث التاريخ هي أسهل ما يمكن المغالطة والدّس فيه . هذان الباحثان هما : فان فلوتن وفون كريمر .

يقول المولف ناقلاً عن كريمر [.. إن هذه الفئة ظهرت بتأثير الكنيسة الإغريقية في دمشق ، أي شاركت في تكوينها

بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الاول الهجري] ويتبع المؤلف هذا الكلام مباشرة بقوله : [ويذكر الشهرستاني أن الحسن حفيد عليّ كان أول المرجئة، فكأن الإرجاء - في رأيه - علويّ المنبع .] .

فهذا الخلط الاول في التاريخ والتحليل إنما يشبه الخلط الآخر الذي يزعمون فيه أن الفقه الاسلامي مسروق من الرومان .. وأن النبوة في الاسلام هي حلقة من سلسلة النبوآت التي عاشت في التاريخ العبري من سحر وكهانة وتنجيم .. وأن التدين نفسه شيء اخترعه الحكام للسيطرة على شعوبهم .. ونظير هذا وذاك في باب السياسة زعمهم أن الجمهورية العربية المتحدة قد استحلّت واستعمرت العراق ، وأن سيادة لبنان مهددة من قبل عبد الناصر ، وأن جيوشهم تأتي لتحفظ لها هذه السيادة ..! وصاحب الغرض والإحن ، حينما يكون طليقاً من قيود الحجج والمنطق والاثباتات ، يحدثك عن كل مايشتهيه ويتخيله ويحلم به ولا حرج ؛ وذلك أقل ما يشفي به المغتاظ غيظه . وإلا فمن أي مرجع أثبت كريمر أن مذهب الإرجاء ذو اتصال بأفكار الكنيسة مع أن كل ما بأيدينا من مراجع ذات اختصاص مباشر بهذا الشأن ليس فيه أي إشارة يستأنس

بها لزعم هذا الأفاك . وهلاّ أتبع هـذا ـ المؤرخ الخطير ـ حقيقته هذه بأصغر دليل عـــابر يبرهن على احتمال صدقه ؟

أما الخلط الثاني الذي جاء به شـــاكر مصطفى وألصقه بتخيلات كريمر ، ـ من زعم أن الحسن حفيد علي هو أول المرجئة ـ ففيه ما فيه من محاولة ربط (الكنيسة الاغريقية) بأهل البيت رضي الله عنهم . ولو لم يكن تقوّل على الشهرستاني مالم يقله ، مما يدلّ على أنه اشتهى أن يوجد أسباب هذا الربط .. لما اتهمناه بهذه المحاولة الخطيرة . ولكن براءة الامام الشهرستاني من هذا الرأي إعلان صارخ بأن الاستاذ شاكر ليس بريئاً من هذه التهمة . أجل إن الرجل لم يقل قطعياً إن الحسن حفيد علي هو أول المرجئة ، ولكنه ذكر ـ نقلاً عن بعضهم وبصيغة مضعّفة ـ أن (.. من رجال المرجئة الحسن بن محمد بن علي وسعيد بن جبير وطلق بن حبيب وعمرو بن مرة ومحـــارب بن دثار) .. الخ وعدّ نحو أحد عشر اسمـــاً . ثم قال ولكن هؤلاء كلهم أئمة الحديث لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة .. خلافاً للخوارج والقدرية . والمعروف أن كثيراً من المرجئة من الخوارج أو القدرية ، حتى أنهم ليُسمّون بمرجئـــة الخوارج أو مرجئة القدرية . ولنفرض أن يكون هذا النقل الذي ساقه الشهرستاني

صحيحا ، ولكن من أين فهم المؤلف أنّ الحسن حفيد علي هو أول المرجئة ، ولماذا لا يكون سعيد بن جبير - وقد نقل الشهرستاني في هذا القيل أنه هو أيضاً من رجال المرجئة - هو أوّلهم ، مع أن الظاهر يقتضي ذلك إذ إن سعيد بن جبير كان أقدم من الحسن حفيد علي ، فلقد مات هذا في عام المائة بينما كان موت ابن جبير في سنة أربع وتسعين ، وكان يكبر في السّن الحسين بن محمد (١) على أن الشهرستاني نفسه نص على عكس هذا حينما عدّ فرق المرجئة وذكر اسم رئيس كل فرقة ، كما سنبين الآن .

ثم إن المؤلف حاول أن يعطينا فكرة عن هذه الطائفة ، ولكنه لم يزد على أن قال : [.. وليست لدينا معلومات دقيقة عن المرجئة] ثم أتى لنا بعد البحث بقصيدة لشاعر في عهد عبد الملك بن مروان ، قال انها [.. أثمن نصٍّ يكشف لنا عن مبادىء هذه الجماعة التي كانت تعتبر - كما قال أحد رؤسائهم جهم ابن صفوان - أن الايمان عقد بالقلب وإن أعلن المرء الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان ولزم اليهودية أو النصرانية فهو

---

(١) راجع تهذيب الاسماء للنووي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان

مؤمن كامل الايمان عند ربه عز وجل] . ولسنا ندري لماذا يحمل المؤلف نفسه تبعة دراسة هذا المذهب مادام أنه لا يجد معلومات دقيقه عنه إلا في ثنايا الشعر وقصائد الشعراء ؟ ولقد كان خيراً له أن لا يقحم نفسه في هذه الورطة التي لم يخرج منها إلاّ بأغلاط فاحشة وجهل واضح ؛ وأولى بمن يتصدى لتدوين التاريخ أن يعكف قبل كل شيء على دراسة مايريد أن يدونه للأمة ويقذف به الى المطابع ، حتى يتأكد من أنه على حق فيما يكتب ويدوّن .

يقول الاستاذ شاكر : ليست لدينا معلومات دقيقة عن المرجئة ، مع أن المراجع المتوفرة في كل مكان تفيض بالحديث عنهم وعن كل مـا يتعلق بمذهبهم ودقائق آرائهم . ومذهب المرجئة من أحد المذاهب التي اشبعت بحثاً ودرساً .

ويقول الاستاذ شاكر أيضاً : إن جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة ، مع أن كل من درس شيئاً من علم الكلام أو استعرض موجزاً لأنواع الملل والنحل في الاسلام لا يشك أن جهم بن صفوان رئيس (الجهمية) وهم فرقة تمسكت بعقيدة الجبر وزادت عليهـــا بعض الآراء الأخرى التي ميزتهم عن الجـبريين . ولم نسمع أي كاتب أو مؤرخ يقول إن جهم بن

صفوان رئيس المرجئة [1] .

ويقول الاستاذ شاكر : إن المرجئة يعتقدون أن المؤمن مؤمن وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان ولزم اليهودية والنصرانية . فليعلم الاستاذ أن احداً من المرجئة على اختلاف فرقهم لم يقل هذا الذي يقول هو عنهم ، وإنما هو رأي جهم بن صفوان وحده كما ذكر ذلك ابن حزم في الملل والنحل ، وهو كما قلنا رئيس (الجهمية) لا المرجئة . اما المرجئة الذين قال إنه ليس لدينا عنهم معلومات . فتتفرع إلى ست فرق كما ذكر الشهرستاني في الملل والنحل . وهي اليونسية ، والعبيدية ، والغسانية ، والثوبانية ، والتومنية ، والصالحية . والقدر المشترك فيما يعتقده هؤلاء كلهم هو ان الانسان إنما يثاب على الايمان وحده ، ويعاقب على الكفر وحده . فلا اقتراف المعاصي يوجب عليه عقاباً ، ولا كثرة الطاعة تزيد له ثواباً . ثم اختلفوا فيما بينهم

---

(١) راجع الجزء الأول من الملل والنحل للشهرستاني عند الحديث عن الجهمية ، ودائرة المعارف لفريد وجدي في مادة جهم .

في تحديد معنى الايمان هل هو بالقلب او اللسان ، وما هي الامور التي ينبغي ان يؤمـــن بها . ولولا خشية الاطالة فيما لسنا بصدده لاتينا على ذكر آرائهم مفصلاً . أما رؤساء هذه الفرق فلا بدّ لنا من سرد اسمائهم لكي يتضح تماماً خلط مـا ادعاه المؤلف على لسان الشهرستاني من ان الحسين حفيد علي هـو رئيس المرجئة . فأمـــا اليونسية فرئيسهم يونس السمري ، واما العبيدية فرئيسهم عبيد المكتب ، واما الغسانية فرئيسهم غسان الكوفي ، اما الثوبانية فرئيسهم ثوبان المرجئي ، واما التّومنية فرئيسهم أبو معاذ التومني ، وأما الصالحية فرئيسهم صالح بن عمرو الصالحي[1] . فرئيس مَن يكون الحسن بن محمد بن علي أيها المؤرخ الكبير [2] ؟ !

---

(١) راجع هذا البحث في دائرة المعارف أيضاً لفريد وجدي في مادة (مرجئة) .

(٢) على أن الشهرستاني بعد أن نقل زعم الذين رمـــوا الحسن بالارجاء رد عليهم قائلاً : (.. غير إنه ما أخر العمل عن الإيمان كما قالت المرجئة واليونسية والعبيدية ، لكنه حـــكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر . إذ الطاعات وترك المعاصي ليست =

ثم إن المؤلف يذكر بهذا الصدد نصاً لكريمر يقول فيه (مدرسة أبي حنيفة ومذهبه الديني يقومان على أساس تعاليم المرجئة . وقد قبل أبو حنيفة أهم مبادئها ، كما أن اقدم مؤرخ للدين وهو ابن حزم يرى حين يتكلم عن المرجئة أنهم أقل الطوائف بعداً عن الاسلام الصحيح) وإن تعجب لشيء فاعجب كيف أن الأستاذ المؤلف - وهو عربي مسلم - سلم هذا الادعاء من كريمر ، ولم

= من أصل الايمان حتى يزول الايمان بزوالها) ا هـ شهرستاني في الملل والنحل .

وهذه العقيدة هي نفس ما يدين به أهل السنة والجماعة وجمهرة المسلمين . فما قال أحد منهم في يوم ما إن صاحب المعصية أو الكبيرة يكفر . وإذا كان هذا إرجاء فجميع أهل السنة من المرجئين ، بل وأنا أولهم، خصوصاً بعد ما نص الله تعالى في كتابه قائلاً : (وآخرون مرجون لامر الله . .) ومن هنا ألصقوا بأهل السنة والجماعة لقب (مرجئة السنة) .

ثم تأمل أنت قول الشهرستاني الذي نقلناه الآن عن الحسن : (إنه ما أخر العمل عن الايمان كما قالت المرجئة) تجد كيف أنه ينكر أن يكون الحسن منهم ، فضلاً عن أن يتبنى القول بأنه كان أولهم .

يحمّل نفسه مشقة الرجوع إلى كتاب ابن حزم أو أي مرجع عربي آخر ليتأكد من صحة دعوى كريمر ! ! فليذكر التاريخ هذا وليعجب . . ! [1]

---

(١) يعتبر إلى اليوم فن الرواية والدقة فيها ، من خصائص الأمة الاسلامية . وبفضلها ظل تراث النبوة إلى اليوم في حصن منيع بعيد عن أيدي الأعداء والعابثين رغم كثرتهم ومكايدتهم... كما لعب هذا الفن دوراً هاماً في إيصال كثير من حقائق التاريخ وتراجم الرجال والبحوث العلمية نقية عن التزيد واللغو فيها . . . وإلى منذ حقبة غير طويلة كانت البحوث العلمية لاتتخذ صبغة التحقيق فيها ما لم تتمش مع مقتضيات هذا الفن من الدقة في الرواية وعدم الخطف فيها .

وإن رجال الغرب ليحسدوننا على هذه الثروة أيما حسد . ويتمنى الباحثون فيه لو تأتى لهم تطبيقه لديهم لاستخدامه في كثير من بحوثهم ، ولكن أنى لهم ذلك ومعظم عناصر هذا الفن قائم على الدقة والأمانة الخلقية والتجرد عن الاهواء والنزعات . وهذا ما لا يعرفه رجال الغرب والمستشرقون .

والعجيب حقاً أن يذهل كثير من أمثال هذا الاستاذ - في غمرة لذة تقليدهم للغرب - عن الاستفادة من هذه الثروة الفنية الرائعة ، فيسلكون في بحوثهم نفس النهج الذي يسلكه المستشرقون والاجانب ، وهو منهج الاستنتاجات التي تعتمد في معظم الاحيان =

وأنا أقرر أن كلام كريمر هذا هراء من اصله ولا أساس من الصحة لشيء منه . فأبو حنيفة لم يكن مرجئا كما زعم ، ولكنه كان يسير في شؤون العقيدة على نهج أهل السنة والجماعة . ولقد عرض الشهرستاني لهذا البحث فقال : (إن من العجب أن غسان كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه ، ويعده من المرجئة . ولعله كذب . ولعمري كان يقال لأبي حنيفة وصحبه مرجئة السنة [1] ولعل السبب فيما نسب اليه أنه لما كان

= على الحدس والتخمين والتعلق بأي بارقة من رواية أوحكاية أوقيل! ولقد كان لهذا الخطأ الذي لا يغتفر أعظم أثر سيء في ضياع كثير من المعالم الحقيقية في تاريخنا العربي والاسلامي ، حتى أصبح الباحث عن الحقيقة في زوايا هذه الكتب الحديثة يتيه في دوامة من الخلط والخبط والاستنتاجات الوهمية التي لا يعرف صادرها ولا واردها .

ولئن كان هذا النهج (الوهمي) يتمشى مع ما يهدف إليه الأجانب من الدس والافتراء والتمويه في حقائق تاريخنا العربي والاسلامي ، فما هو الهدف الذي يتمشى مع هذا النهج نفسه لدى الباحث العربي المسلم ؟!

(١) أي من أهل السنة الذين يقولون إن أمر صاحب المعصية مرجأ الى الله . وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة .

يقول الايمان هو التصديق بالقلب وهو لايزيد ولا ينقص ظنوا أنه يؤخر العمل عن الايمان . . وله سبب آخر وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول . والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئياً) اه

وأما قول كريمر : إن ابن حزم حين يتكلم عن المرجئة يرى أنهم أقل الطوائف بعداً عن الايمان الصحيح فهو عكس ما يقرره ابن حزم تماماً ! إن ابن حزم ـ في سائر المناسبات التي يتحدث فيها عن المرجئة ـ يتهجم عليهم بشدة . ولقد عقد فصلًا لمناقشتهم في كتابه الملل والنحل الجزء الرابع بعنوان : شِنَع المرجئية ، وبعد أن تحدث عنهم طويلا قال : (وكل هذا كفر محض . .)فاعجبوا ياإخواني الطلاب من خلط المستشرقين وسوء أمانتهم ، ثم للعربي المسلم كيف يستسلم لكلامهم دون أي بحث أو تفكير . . ! ![1]

---

(١)ليس يخفى ما ينطوي عليه عمل هؤلاء المستشرقين من الخبث فهم أولاً يزعمون أن المرجئة يعتقدون بأن المؤمن مؤمن وان =

والعجيب أيضاً أن المؤلف يقول بعد هذا: (والمرجئة بنتيجة هذا الرأي يجهرون بأن جميع المسلمين إخوة في الدين ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وهذا هو الوجه الاجتماعي لهذه الفئة . إذ أضحى كل ماتنشده هو العودة إلى المبدأ الاسلامي في التسوية بين الشعوب). فأما أنهم يقولون : إن المسلمين إخوة في الدين ، فهذا ما يقوله كل مسلم من أي طائفة كان . وليس لهذا الشعار أي علاقة خاصة بالمرجئة . واما أنهم يقولون لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فذلك ما لا يقولونه هم ، بل وتلك هي ميزتهم التي جعلت لمذهبهم سبيلاً مستقلاً . إذ انهم لما قالو : إن الطاعة والمعصية ليس لهما دخل في زيادة الثواب او استحقاق العذاب ، وإنما المسألة كلها تتعلق بالايمان والكفر ـ فقد قرروا بمقتضى ذلك ان

= أعلن النصرانية ولزمها وأعلن الكفر بلسانه . ثم يزعمون أن اقدم مؤرخ للدين يقول إن هذه الفرقة أقرب الفرق إلى الاسلام الصحيح لكي يصالحوا بذلك بين الاسلام ومظهر الاديان الاخرى ". فتأمل كيف يكون الخبث التبشيري .

ليس ثمة شيء اسمه التقوى بعد الايمان يعلي ويخفض ويقدم ويؤخر . وكأن المؤلف يريد ان يجعل لهذه الطائفة وجهاً سياسياً ، فيزعم ان مذهبهم جاء ردّ فعل للسبيل الذي اتبعه الامويون من تفضيل العنصر العربي على غيره ، وتناسي التقوى التي هي ميزان كل شيء . ولكن هيهات ان يكون الامر كذلك . وإنما ارباب « الوجه الاجتماعي » الذي يتحدث عنه هم اهل السنة والجماعه فقط . فهم الذين يقررون عدم الفرق بين اي شخص وآخر إلا بالعمل الصالح وتقوى الله تعالى . ومن اهل السنة والعقيدة الصحيحة كان معظم العرب في كل عصر ودولة .

عمر بن الخطاب والولاة

●

ثم يعقد المؤلف بحثاً عـن السياسة المالية في العصر الأموي في صفحة ٢٤ ويتحدث عن العمال وطرق جمعهم الأموال ، وأنهم كثيراً ما كانوا يجمعون من الأهالي أموالاً بطرق غير مشرعة وأن الخلفاء كانوا في معظم الأحيان يتهاونون في ردعهم عن ذلك ، أو يقاسمونهم تلك الزوائد التي اكتسبوها ظلماً ؛ وما هو إلا أن يروغ بهـذه التهمة نفسها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويلصقها به بأسلوب خاطف لبق . وهذا كلامه بنصه في صفحة ٢٧ :

(. . وقلما كان يعنى الولاة باخفاء أعمالهم ، فقد اعترف

والي خراسان ليزيد بأنه قد حصّل له على عشرين مليوناً من الدراهم فسوغه إياها . وكان بعض الولاة يلتمسون من الخليفة إعفاء من قبلهم من الموظفين من تقديم بيان دقيق عما جمعوه من الاموال . وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاة ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها مرة عمر بن الخطاب من المقاسمة . فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطرق المعوجة . . . ومعنى ذلك أن الخلفاء راضون بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد) ! !

أكذلك أيها الرجل ؟ ! . . وعمر بن الخطاب أيضاً مالأعماله على الجور والظلم ، وسكت على ظلمهم في مقابل أنه قاسمهم فوائدهم؟ ! وإذاًفلمن تسجل هذاالتاريخ؟وأي عربي بقي بعد عمر يستحق تدوين اسمه والاشادة بعدله ؟ ولكن ماذا أقول لك إذا كنت تعترف بنفسك أنك تنقل هذا البحث عن (فان فلتون) وأنه ينقل لك بعضه عن الطبري ؟ ! ! وي ، يالمجد العروبة والاسلام ، أين غاب واندثر !

ما هي ـ ياأستاذ شاكر ـ قصة المقاسمة التي ابتدعها عمر بن الخطاب ثم تابعه عليها بعد ذلك خلفاء بني أمية لتبرير الفوائد التي جمعت بطريقة معوجة ؟

إما أنك أيها الرجل تعرف قصة ذلك ، ولكنك أعرضت عن بيانها وآثرت طيّها وكتمها ، فاسمح لي أن أقول لك : إن هذا ـ وأنت تدون التاريخ ـ إسمه تمويه وتضليل في حنكة .. ولا أقول لك : في خبث . وفائدة هذا التموية ثمينة لمن يبحث عنها . إنها على الاقل تدع القارىء يحسب أن المقاسمة التي قام بها عمر هي لسبب من مثل تلك الاسباب التي قاسم من أجلها خلفاء بني أمية . بل وإن العبارة تصرح بأنه زعيمهم في ذلك !

وإما أنك لا تعرف شيئاً عن قصة مقاسمة عمر ، فما الذي حشرك إذاً في سوق ما لا تعرف عنه شيئاً وأنت تؤلف في التاريخ .. التاريخ العربي الإسلامي الذي سيعكف على دراسته جيل بعد جيل ؟ ! وأي جرأة هذه التي حملتك على صفع حياة عمر وترجمته بهذه الطعنة الشائنة النجلاء ما دمت لا تعرف شيئاً عن صادرها

ولا واردها ؟ !

وبعد فإن عمر رضي الله عنه لم يقاسم عماله – كما يذكر المؤلف – مرة واحدة ، بل قاسم أكثر من مرة وصادر أكثر من مرة . فتعالوا أقل لكم لماذا صادر وقاسم رجل العدالة والامانة لتزدادوا إيماناً بعدله وإعجاباً بأمانته .

لقد كان بعض عماله يذهب إلى مكان عمله ومعه شيء من مال له ، فيرى فرصة التجارة هناك سانحة ، فيشغل ما فاض من وقته بالتجارة ، أو يجد من المسلمين من يكرمه ويبجّله رعاية لمركزه الاسلامي وحباً بالاسلام وممثليه . فيعود أمثل هؤلاء إلى عمر وقد أيسروا بسبب ما نالهم من احتفاء الأهالي بهم واكرامهم اياهم . والاسلام يقرر في حزم وصراحة أن أي انسان يشغل وظيفة دينية كالقضاء والولاية والافتاء لا يجوز له بشكل مّا أن يسخر تلك الوظيفة لاستجلاب قرش واحد من المال ، سواء كان نوع ذلك الاستجلاب في حد ذاته مشروعاً – كالتجارة

وقبول ما يهدى إليه (في غير مقابل ..) - أم لا وسواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر . وأصل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على صدقة ، فلما قدم قال للرسول : هذا لكم ، وهذا أهدي ألي . فقام النبي عليه الصلاة والسلام وصعد المنبر ثم قال : (ما بال العامل نبعثه فيأتي ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إليّ . فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا . والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته . إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيْعَر . ثم رفع يدية حتي رؤيت عفرتا إبطيه وقال : ألا هل بلغت)؟ (ثلاثا) ومن ثم فقد قرر التشريع الاسلامي أن كل مال وقع في يد وال أو قاض ، ويشبه أن يكون لوظيفته دخل في تيسير ذلك المال إليه ، فهو لبيت مال المسلمين . أمّا ما أخذ من أهله غصباً أو من وراء حق الاسلام فهو ردّ ، لا يقبل الا أن يرجع إلى ذويه . وهذا ما صنعه عمر بن الخطاب ونفتخر بما صنع . فقد

سأل مرة الحارث بن وهب وقال له : ما قلاص وأعبد بعتها بمئة دينار ؟ قال : خرجت بنفقة لي فاتجرت فيها قال وإنا والله ما بعثناك للتجارة . أدّها . ثم صعد المنبر وقال : يامعشر الأمراء إن هذا المال لو رأينا أنه يحلّ لنا لأحللناه لكم ؛ فأما إذا لم يحلّ لنا وكففنا أنفسنا عنه فاظلفوا عنه أنفسكم .. ومرّ ببنّاء يبني بحجارة وجص ، فقال : لمن هذا ؟ فذكروا عاملاً له على البحرين . فقال أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . وشاطره ماله . أما أبو هريرة فقد سأله بعد أن عاد من البحرين ـ ومعه عشرة آلاف ـ وكان قد استعمله عمر هناك . فقال له عمر : استأثرت بهذه الأموال فمن أين هي لك ؟ قال : خيل نتجت وخراج رقيق لي فنظر فوجدها كما قال ، فلم يأخذ منه شيئاً (١) ولو أن أحدهم جاء بدرهم اغتصبه من الأهالي أو حصله منهم بـ « الطرق المعوجة » كما يقول المؤلف ، لأعاد عمر الدرهم إلى صاحبه ولو لحقه في سبيل ذلك إلى أقصى الدنيا بل وما كان لعمر أن يستعمل شخصاً على جهة يطمع

(١) راجع الاصابة وعيون الاخبار وسيرة عمر بن الخطاب للطنطاوي

بمثل هذا . ولقد قام عمر رضي الله عنه مرة في موسم الحج يقول ـ وقد جمع العمال كلهم ـ : أيها الناس إنني والله ما أبعث إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكن أبعثهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي) وما كان عمر ليضرب (ابن الأكرمين) ويقتصّ منه لرجل من الاهالي كان قد آذاه وضربه ، ثم يطيب له أن يستولي على ما أخذ منهم (بطرق معوجة) ويقاسم عماله ذلك .

ولعلك تتصور الآن مدى الفرق الكبير بين ما أقدم عليه عمر بن الخطاب من العمل الحق المشرف ، وماكان يسلكه بعض الخلفاء الأمويون من إرخاء عنان الولاة لظلم الأهالي واستلاب حقوقهم كما فعل الحجاج وغيره . فإذا تصورت ذلك لم يفتك سرّ التّعمية والتسوية التي خلط بها المؤلف بين عمل عمر وأولئك الخلفاء الآخرين حين قال : (وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاة ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ اليها مرة عمر بن الخطاب من المقاسمة ، فهم يقاسمون

العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطرق المعوجة . .)

ونعود مرة أخرى فنقول للمؤلف : لماذا لم تشرح شيئاً عن حقيقة مقاسمة عمر ؟ لماذا ساويت بين الجميع وكتمت الفرق والتفصيل ، وتركت اسم عمر يدغم وينطوي في تيار طعنك واتهاماتك ؟ لماذا صغت كلامك عنه بهذا الأسلوب المحنك الملتوي حتى جعلت الطلاب يفهمون - وحق لهم أن يفهموا - أن عمر كان يقاسم عماله ما يأخذونه من المسلمين ظلماً ؟ لماذا . . . ؟ !

وإذا كان فان فلتون هو الذي صاغ هذه الفرية وكنت أنت ناقلها فلماذا دمغت على ظهر الكتاب اسمك ولماذا لم تكتب في أعلاه بالخط النسخي العريض : قاموس استشراقي محيط . نقل وترتيب : شاكر مصطفى ؟

عمر بن عبد العزيز وسياسته الماليه

●

وفي مكان آخر من الكتاب يتحدث المؤلف عن الحكومة والإدارة الأموية ، ثم ماهو إلا أن يسدد الطعن بجرأة غريبة إلى عظم آخر من عظماء الإسلام : عمر بن عبد العزيز !

وإليك نص مايقول هذا الرجل في صفحة ٢٢ :

[ثم عمر بن عبد العزيز الذي اتبع سياسة دينية جرّت عليه نقمة العناصر المسيطرة من الارستقراطية العربية وغير العربية ، عدا أنها أوقعت الدولة في عجز ماليّ لم تبرأ منه بعد ذلك] .

ونحن نعلم أن المؤلف لم بضايقه من سياسة عمر بن عبد العزيز أنه أغضب العناصر الارستقراطية كما يزعم ، ولكن الذي ضايقه من سياسته أنها كانت (دينيّة) ، والسياسة الدينيـــة فيما يراه عقل المؤلف — سياسة خرفاء وإن عممت الارض عدلاً وأنصفت المظـــلوم من الظالم وأظلّت العالم بظلال الطمأنينة والامن ، إذ حسبها أنها على كل حال سياسة (دينية) !

وإلاّ ، فإن تلك العناصر الارستقراطية التي فزع لها ، ليست غير أولئك الولاة والامراء الذين كانوا يغتصبون أموال الاهالي ويمتصون أموالهم بـ (الطرق المعوجة) على حد تعبيره الذي عبر به حينما صب عليهم جام نقمته وغضبه ، وامتد به الغضب من أجلهم إلى عمر بن الخطاب . ونحن والله لاندري كيف يستطيع أن يتسبب الخليفة من عباد الله إلى رضى الاستاذ المؤلف فيما يجب أن يتبعه من سبل السياسة على وجه هذه الارض مادام أنه لايخطّ لهم بيده الصراط السويّ الذي يجب عليهم جميعاً أن ينتهجوه .

عمر بن عبد العزيز اتّبع سياسة جرّت عليه نقمة العناصر الأرستقراطية .

أجل ... إن هذا صحيح وهو ما يفتخر به عمر بن عبد العزيز أمام الله تعالى ، وما نفتخر من أجله نحن بعمر بن عبد العزيز . يقول عبد الحميد بن سهيل : لقد رأيت عمر بن عبد العزيز ، بدأ بأهل بيته فردّ ما كان بأيديهم من المظالم ، ثم فعل ذلك بالناس بعدُ . فقال عمر بن الوليد غاضباً جئتم برجل من وُلد عمر بن الخطاب فوليتموه عليكم ففعل هذا بكم . وقال أبو الزناد : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في ردّ المظالم إلى أهلها فرددناها حتى أنفذنا ما في بيت مال العراق وحتى حمل عمر المال إلينا من الشام . وجاءه ذمّي من أهل حمص فقال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال وما ذاك ؟ قال إن العباس ابن الوليد اغتصبني أرضي . فلما حقق في الامر وعلم صدقه أرجع أرضه إليه . فغضب عمر بن الوليد وأرسل إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يوبخه فيه ويتوعده على ذلك ، فكتب إليه عمر

يقول : [.. تزعم أني من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذي فيه حق القرابة والمساكين والارامل . وإن أظلم مني من استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ، ولم يكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده . وإن أظلم مني من استعمل الحجاج يسفك الدم ويأخذ المال الحرام[1]...]

تلك هي سياسة عمر بن عبد العزيز في المال ، وذلك هو السبب الذي أغضب عليه الارستقراطيين الذين مردوا على الظلم واستمرؤوا الغصب والجور . فهل هي نقيصة تصم جانبه ، أم مفخرة يعلو بها رأس التاريخ العربي ؟ ولعمري إن شاكر مصطفى الذي يرمي غيره من خلفاء بني أمية بالجور وأخذ المال بـ (الطرق المعوجة) يستطيع أن يدرك رفعة هذه المفخرة لو لم يعبها أنها قامت على سياسة (دينية) . فتدين ابن عبد العزيز هو الذي أسقط هذه المفخرة في نظره من حالق .. ولكن خذها — أيها المؤلف — حقيقة أثبتتها الطبيعة وصدّق عليها التاريخ :

(١) تهذيب الاسماء للنووي ، وحياة الحيوان للدميري

أن من لا خير فيه لدينه لا خير فيه لامتــــه ولا للمثل العليا جميعها كائنة ما كانت ..

وأما أن سياسته (أوقعت الدولة في عجـز ماليّ لم تبرأ منه بعد ذلك) فنحن لا نعـلم — وليس أحـد من رجال التاريخ يعلم — أنه ترك صنـدوق الدولة يعشو به الغادي والرائح ، أو أنه وقفه على مجونه ومرحه ولهوه ، أو أنه أعفى الناس من واجب الاسلام والدولة في أموالهم ، أو أنه أقطع به الاراضـي والضياع لاهـــله وأقاربه . ولكنا نعلم ، وجميـع رجال التاريخ يعلمون أنه عمد — في أول يوم بويع له بالخلافـة — إلى جميع مراكب الخلافة وملحقاتها فصرفها إلى صندوق الدولة واتخذ لنفسه بغلة يركبها في غـدّوه ورواحه ، وأنـه في اليوم نفسه قـال لزوجته فاطمة : إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر إلى صندوق مال المسلمين فإنـه لهم ، فردّته جميعه . وأنه قال لمولاه مزاحم : إن أهلي أقطعوني مالم يكن لي أن آخذه ، ولا لهم أن يعطونيه ؛ وإني قد همت بردّه على بيت مال المسلمين .

قال : فكيف تصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : أتكلهم إلى الله . وأنه لما ولي الخلافة أحضر بشأ ووجوه الناس فقال لهم : إن « فدك » كانت رسول الله ﷺ فكان يضعها حيث أراه الله ، ثم وليها أبو بكر كذلك وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ، ثم أنها صارت إليّ ولم تكن من مالي أعود منها عليّ . وإني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ . فردّها إلى بيت مال المسلمين . وأنه كان قد شدّد على أقاربه وأعاد كثيراً مما كانوا قد اقتطعوه إلى الدولة . فتبرموا به ودسوا إليه خادمه ليسمّه . فاطلع على الأمر ، وقال للخادم : ويحك ما حملك على ذلك ؟ قال : ألف دينار أعطيتها . فقال : هاتها . وطرحها في بيت المال ، ثم أطلقه[1] .

فإذا كان عمله هذا هو الذي أوقع الدولة في عجز مالي ، فحدثني ويحك وقل لي : أي عمل إذاً يفيدها

(١) ابن الأثير - وتهذيب الأسماء .

السّعة والربح . وإني لأعجب لضميرك والله - أيها الرجل - ، لم يؤنبك على هذا الظّلم الذي حملت قلمك حملاً على ارتكابه في حق رجل هذه سيرته وهذا عمله الذي شهد له به كل الرواة والمؤرخين ، بل واني أعجب اقلامك كيف طاوعك على ما افتريت ، وكيف لم يؤثر أن يتحطم بين أناملك على أن يخط حرفاً واحداً من جريرتك هذه ..! ولعمري ما كنت أنت ولا الذي درّبك ولا المستشرق الذي تنهل علومك من كفّه أغير من ابن عبد العزيز على صندوق الدولة وأموالها . ولئن كان إرجاعه أموال الناس إلى أربابها قد نقص من حساب الصندوق ، فإنما هو تطهير له لا تسبب لعجزه ، ولكن هيهات أن تفهم معنى التطهير والتمحيص ... وحسبه على كلٍ أن جعل أفراد الدولة تستفيد من مال الدولة ، حتى لم يعد بينهم من يسأل عن زكاة . ولم يجعل الشعب ينظر إلى ضخامة الصندوق ليتمتع منه بالبريق والحرمان فحسب .

وأشهد لو لم تكن ذا (غرض) ترمقه من وراء

كتابك هذا لما اختلقت النقيصة اختلاقاً لتاصقها بأعدل خلفاء بني أمية على الاطلاق ، وتخفي بها مآثره التى عمت أرجاء الأرض وفاضت بها صفحات التاريخ وغدت مضرب المثل في العالم العربي والإسلامي قاطبة .

رجوع عيسى عليه السلام

ثم إنا لا ندري ما الذي أقحم المؤلف ـ وهو يتحدث عن التاريخ ـ فيما ليس من شأنه . وليت شعري ما هي علاقة التاريخ العباسي بقصة عيسى بن مريم عليه السلام ورجوعه قبيل الساعة حتى يحدثنا عنها ويفيض علينا من معلوماته في ذلك ؟ غير أن الذي جرّه إلى البحث في أمر عيسى ليس هو المناسبة ، وإنما هو شيء آخر .. هو (الغرض) الذي ألّف كتابه كله على هذا النحو من أجله وفي سبيله ونحن نحمد الله على أن هذا (الغرض) لم يعد خفيّا .

وهذا الغرض هو الذي دعاه إلى ان يختلق المناسبة اختلاقاً ليقول إن قصة رجوع عيسى بن مريم في آخر الزمن خرافة . . فهو يقول في صحيفة ٤٠ [. . وهذا مايفسّر لنا شيوع فكرة المهدي المنتظر ، وظهور أفكار أخرى غيرها قائمة على التنبؤ . . أو التنبؤ بمصير العالم أو برجعة عيسى بن مريم . .] (١)

---

(١) لسنا نعني أن كل ماتنبىء به من المغيبات كأعمار الدول والأمم ومجموع عمر الزمن ، وكالاخبار عن الملاحم وعن ظهور أشخاص يتحكمون في تغيير دفة الحكم وسير الدول — لسنا نعني أن كل ذلك صحيح بل نحن لانشك أن كثيراً من المغرضين والدسطاء جالوا جولة خرافية فيما يتعلق بالمغيبات ، ولقد كان مصدر ذلك في صدر الاسلام بعض مسلمي بني إسرائيل . . . ثم تحكمت في ذلك نوازع السياسة .

ولكننا ننكر كل الإنكار أن تتعلق الخرافة بخبر نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصل إلينا من الطرق الصحيحة السالمة عن أي ضعف أو دخل . . وذلك كهذا الأمر الذي نحن بصدده من الإخبار عن رجعة عيسى عليه السلام في عصرما بآخر الزمن .

ونحن لانريد أن نناقشه في مسألة المهدي ، لعلمنا أن الأحاديث الواردة في ذلك عن الرسول على كثرتها ، واختلاف طرقها ، ضعيفة .. واختلاف الطرق وتعددها وإن كان كل من ذلك يرفع من قيمة الضعيف ، ويجعله في قوة الحسن ، غير أن إنكار المهدي ليس كانكار رجوع عيسى واعتباره خرافة ؛ لثبوت الاحاديث الصحيحة القوية في حق ذلك . والآيات الواردة التي أجمع المفسرون على إشارتها في وضوح إلى رجوعه قبيل الساعة واضطرار أهل الكتاب إذ داك إلى الإيمان به نبيّاً مرسلًا ، لاربّاً أو ابن ربّ ... فأما الآيات فهي قوله تعالى في سورة النساء (.. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) ومعنى الآية الأخيرة ـ كما ذكره أبوهريرة ومعظم المفسرين ـ

أنه لا بد من أن يؤمن قسم كبير من أهل الكتاب ـ وهم الذين يكونون في آخر الزمن ويشهدون نزوله ـ بنبوة عيسى عليه السلام وبأنه لم يقتل ولم يصلب كما زعموا . . وواضح أن ايمانهم به قبل موته إنما يكون بسبب رجوعه قبيل الساعة .

وأما الأحاديث الثابتة الصحيحة ، فقد روى مسلم عن أبي خيثمة وغيره بسنده متصلاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم اطلع على بعض أصحابه وهم يتذاكرون ، فقال ماتذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة . قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات . . وذكر منها نزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . وروى مسلم عن زهير بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم، حديثاً طويلا بسنده عن اشراط الساعة ، وفيه : (. . فبينما هو كذلك ، إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مُهَرْوِدَتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين . . .) الخ . وروى الطبري عن بشر بن معاذ عن سعيد عن قتادة عن عبد

الرحمن بن آدم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الانبياء إخوة لعلات [1] أمهاتهم شتى ودينهم واحد . وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لانه لم يكن بيني وبينه نبي . وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، سبط الشعر ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل . .) الخ .

وروى البخاري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ، حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : وان من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيداً .

ثم إن الذين يحق لهم أن يستبعدوا رجوع عيسى عليه

---

(١) أولاد العلات الذين امهاتهم مختلفة وأبوهم واحد . يعني أن ايمانهم واحد وان كانت شرائعهم مختلفة .

السلام هم الزاعمون بأنه قد قتل وصلب ومات .. إذ إن بين الأمرين تنافياً وتعارضاً . ولكنّ عقيدتنا الإسلامية الصادقة أن عيسى عبد الله ورسوله وأنه ماقتل وماصلب ولكن شبّه لهم . . وأنه لايزال الآن حياً في مكان ما عند ربه ؛ وهذا هو الجدار الذي يفرق بين العقيدة الاسلامية الراسخة وأوهام الآخرين . فإذا كان الواقع هو أن عيسى عليه السلام لم يمت بعد ، فما المقتضي لاعتبار نصوص هذه الاحاديث خرافة .. ؟

ولكنك تعلم الجواب على هذا التساؤل حينما أذكّرك مرة أخرى بأن المؤلف ينقل كل بحوثه عن المبشرين والمستشرقين ، ويمشي من وراء سبيلهم ويستنير بهديهم . ومتى كان هؤلاء يؤمنون بنبوّة محمد حتى يؤمنوا بالقرآن فيؤمنوا بأن عيسى حي لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وبأنه سيعود في آخر الزمان ليقطع إفك المتخرصين ؟

والسبيل الوحيد الذي نردّ به على الاستاذ المؤلف هنا ، هو أن نقول له أولاً : إننا مسلمون ، ومعنى ذلك أننا نؤمن

بنبّوة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته إلينا ؛ ونحن نؤمن تبعاً لذلك بأن الكتاب الذي جاءنا به هو من عند الله ، وبأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . ولقد ثبت من الطرق الصحيحة المختلفة أن الرسول ﷺ أخبر عن نزول عيسى بن مريم في آخر الزمن . فهي إذاً حقيقة ثابتة لاتقبل الرّيب ؛ والخرافي هو عقل من ينكرها وينزلها منزلة التنبّؤ والتخرص مندفعاً في ذلك وراء ما ينعق به المبشرون الذين يزعمون أن عيسى بن مريم قد صلب وأصبحت عظامه رميماً .

وإلاّ فما الفرق بين إخباره ﷺ عن نزول عيسى وإخباره عن الحشر والنشر والعذاب والثواب ؟ فوالله لاينكر ذاك إلا من ينكر هذا . ولن ترى بينهما من فرق ما دام الكل قد ثبت عن طريق الرسول واخباره الصحيحة . وليس ثمة أي فرق بين حديث صحيح وآيةمن القرآن بعد أن قال الله بانه ما ينطق عن الهوى . .

ومرد سبيل الاقناع في هذه المسألة إلى الايمان بالله

ورسوله .. فإن كان المؤلف كذلك فما هو بحاجة الى أزيد من هـذا الذي قلناه . وإلاّ فإن مجـلدات ضخمة لن تورثه القناعة ما دام الرجل مصاباً في ايمانه بالله ، عافانا الله وإياه من ذلك .

* * *

وبعدُ . .

●

وبعد فقد كنت أود لو ملكت سعة في الوقت أن أتعقب هذا الكتاب إلى آخره لاكشف عن كل ما فيه من أخطاء ومغالطات . . . وإن فيه والله الكثير من ذلك ـ ولكنّ هذه الطائفة التي أتينا عليها من الدّس والمواربة في حقائق التاريخ وتراجم رجاله ، جديرة على كل حال أن تكشف النقاب عن حقيقة هذا الكتاب وما ينطوي عليه وما يقصد إليه . . . وعلى اخواننا الطلاب أن يتأكدوا أن كثيراً مما لم نعرض اليه من فصوله مثل الذي عرضنا إليه تماماً . وإنما كان هذا الذي بحثناه

في هذه الصفحات نموذجاً للاتجاه العام لهذا الكتاب .

والذي نأمله بعد ذلك من اخواننا الجامعيين العرب المسلمين ، المعتزين بتاريخهم وتراثهم أن يقطعوا السبيل في وجه كل خدعة ودسيسة تحاول ان تتسرب إلى صفوفهم وليجعلوا من دراساتهم ومطالعاتهم الخاصة وثقافتهم العربية العامة التي يجب عليهم ـ كشباب جامعيين ـ أن يعكفوا عليها وينهلوا من مصادرها العربية الاصيلة مباشرة ـ ليجعلوا من ذلك قبساً يقيهم شر كل مواربة وتضليل .

أما رجال الفكر وحملة الدعوة الاسلامية عندنا ، فلعمري ما كان من المناسب لهم أن يغفلوا عن مثل هذه الخدع التي تعثوا بحقائق الاسلام والتاريخ ورجالها ! وإن سكوتهم على هذا اليوم إنما هو امتداد لخطيئتهم التي لا تغتفر أبداً .

وأما الدولة ، فإن الذي نعلمه يقيناً أنها قائمة على أساس الإيمان بالله والاعتزاز بتاريخنا العربي والاسلامي. ولكن الإيمان بالله لا يتفق أبداً وهذه البحوث التي تلقى على شباب الدولة في أعظم مؤسسة تعليمية من مؤسسات

الدولة . وإن أبسط مايقتضيه الواجب حيال المحافظة على حقائق التاريخ والإسلام هو أن تكون هناك لجنة مؤلفة من خيرة الرجال الأمناء المخلصين لدينهم وعروبتهم وعلى جانب كبير من الاطلاع والعلم ، تعكف على تمحيص مثل هذه الكتب ومراقبتها ، حتى إذا انتهت إلى صفوف الطلبة كانت نقية صافية ليس فيها أي غش أو دخل . فأين هي هذه اللجنة ؟ وأين العلماء الأمناء المخلصون من تلك الطائفة الخطيرة من السموم والدس والمغالطات التي سردناها الآن يحمون شباب الجامعة منها ؟

وأخيراً فإنا نرجوا أن يكون لهذا البيان فائدة . . ونرجوا أن يهيىء الله من ورائه من يقوم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل . وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم

والحمد لله رب العالمين

تنبيـــه

عالجنا موضوع (الموالي) بشكل أوسع ممـــا سبق في هذه الرسالة ؛ ولمّا فاتنا أن نتدارك نشره هنا ، فقد عهدنا به إلى مجلة (العلوم) اللبنانية . ولعـله يظهر في العدد الثامن من العام الحالي ، الذي سيصدر في أواخر تشرين الأول . فننصح بالرجوع إليها لمن شاء زيادة في هذا البحث .